

الحرية الدينية في الإسلام بين الشريعة والعقيدة

د. نصر محمد الكيلاني*

تمهيد

الحمد لله الذي خلق الإنسان فأكرمه وأعزه وفضله على سائر مخلوقاته، والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة محمد بن عبد الله الداعي لعنق البشرية من رق المعبودات الشركية، وعلى آله وصحابته الأخيار الأطهار معلمي الناس الخير والحرية، وبعد....

لقد خلق الله ﷻ الإنسان وجعل لوجوده في هذا الكون حكمة وغاية، وهي عبودية الله ﷻ الذي خلقه وأوجده من عدم، وأن يكون مستخلفاً في الأرض يعمرها بالإيمان والتقوى لله سبحانه. وهذا الهدف الوجودي لا يمكن تحقيقه من قبل الإنسان ما لم يكن صاحب إرادة حرّة، وقدرة على اختيار ما يراه مناسباً جالباً للمصلحة، ويدراً عن نفسه ما يرى فيه المفسدة. فالله ﷻ - المستخلف - أطلق حرية الإنسان في استثمار كل ما في الكون وتسخيرها، كوسائل مساعدة يحقق بها الإنسان هذا التعمير للأرض بالخير والصالح لكل من يعيش عليها من كائنات. ولكن البشرية حادت عن هذا المنهج الحر الذي رسمه الله لعباده. والمتأمل في المجتمعات اليوم يلحظ أن أخطر ما يواجه الإنسان هو أشكال الإرهاب الديني والسياسي الذي يصادر حريته وإرادته في اختيار ما يراه صالحاً من عقائد ونظم تشريعية توصله إلى تحقيق غايته الوجودية التي سيسأل عنها يوم الحساب، وعن الأمانة التي ألزم بها نفسه دون سائر المخلوقات.

* أستاذ مساعد بكلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، ورئيس قسم العقيدة.

إن هذا البحث يحاول الإجابة على هذه الأسئلة: ما هي نظرة الإسلام للحرية؟ هل الحرية مبدأ أصيل في الدين الإسلامي؟ ما هي حدود وضوابط هذه الحرية؟ هل للحرية علاقة بالتشريع الإسلامي؟ هل الإسلام يكفل حرية المعتقد؟ هل للجهاد علاقة بالإكراه على الدين وفرضه بقوة السلاح؟

المبحث الأول: التعريف اللغوي والاصطلاحي للحرية

يشترك لفظ «حرية» في المعاجم اللغوية من الفعل «حرَّ» بفتح الحاء المهملة والراء. وقد وردت بمعانٍ مختلفة مجملها في الآتي:

- الحُرُّ «بالضم»: نقيض العبد والأسير وجمعها أحرارٌ وحرارٌ. والحُرَّة: نقيض الأمة، وجمعها حرائرٌ. وتحرير الرقبة: عتقها. ويقال لمن أعتق: حرَّ العبد يحُرُّ حرارةً «بالفتح» أي صار حُرّاً. وجاء في الأثر: «شراكم الذين لا يُعتق محرّهم»، أي: أنهم إذا أعتقوه استخدموه، فإذا أراد فراقهم ادَّعَوْا رِقَّهُ.

- وتحرير الولد: أن تفرده لطاعة الله وخدمة المسجد أو المعبود. ومنها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

- والحُرُّ: الكريم. والحُرُّ من كل شيء: خياره وأعتقه وطيبه، ومنه يقال: فرس حُرٌّ: أي عتيق الأصل. وطين حُرٌّ: أي لا رمل فيه. ورملة حُرَّة: أي لا طين فيها.

- وحُرِّيَّةُ القوم: أشرفهم^(١).

أما اصطلاحاً فقد اختلف العلماء في تعريفاتهم للحرية بحسب السياق الذي يرد فيه موضوع كلامهم، والأرجح أن معناها إنما يراعي المعنى الأصيل لها في اللغة، فالحرُّ ضد الزائف. يقول علال الفاسي: "والإنسان الحر هو غير الزائف الذي تُتصوّر فيه الفطرة

الإنسانية متغلّبة على الطبيعة الحيوانية“^(٢)، فالحرية تتناغم مع فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، وهي: الإيمان والإسلام.

فالحرية تعبير عن السلوك الواعي للإنسان الذي ينسجم مع كامل أوجه ميله، وكامل مناحي تكوين شخصيته الإنسانية، تعبر عنها باعتبارها كياناً متكاملأ يهدف إلى الخير للإنسان فرداً كان أو جماعة، وتنتهي إلى تمجيد الخالق واحترام الدين. يقول علّال الفاسي: ”الحرية تعني أن يفعل الإنسان ما يعتقد أنه مكلف به، وما فيه الخير لصالح البشر أجمعين، وإيمان الإنسان أنه مكلف هو أول خطوة في حريته...“^(٣).

والحرية بالمفهوم الإسلامي مرتبطة كذلك بالإرادة الإنسانية، وقد عرف بعض المفكرين الحرية بأنها: ”قدرة الإنسان على فعل الشيء أو تركه بإرادته الذاتية، وهي ملكة خاصة يتمتع بها كل إنسان عاقل، ويصدر بها أفعاله بعيداً عن سيطرة الآخرين لأنه ليس مملوكاً لأحد، لا في نفسه، ولا في بلده، ولا في قومه، ولا في أمته“^(٤).

وأورد صاحب التعريفات مفهوم المدرسة الصوفية للحرية حيث يرون أنها تعني: «الخروج عن رق الكائنات، وقطع جميع العلائق والأغيار، وهي على مراتب: حرية العامة عن رق الشهوات، وحرية الخاصة عن رق المراتد لفناء إرادتهم من إرادة الحق، وحرية خاصة الخاصة عن رق الرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار»^(٥).

فالحرية إذن متناغمة مع فطرة الإنسان، وهي مكون أساسي في تركيبة شخصيته، غير منبئة عن إطار التكاليف الشرعية، ولا تستقيم إلا بتوجهها للخالق ﷻ.

المبحث الثاني: قيمة الحرية في التشريع الإسلامي

لقد جاء التشريع الإسلامي بمقاصد تتحقق للإنسان، ومن ضمنها مقصد حفظ الإنسان، وهذا الحفظ مثلما يكون مادياً متمثلاً في حفظ جسده وماله وعرضه، فإنه أول ما يكون في حفظ حريته وكرامته كإنسان، حيث تولد هذه الحرية والكرامة مع ولادته.

والظاهر في الناس الحرية. يقول صاحب الفروق: "من ادعى على رجل الرق لم يقبل قوله حتى يقيم البينة على الرق، فدل على أن الظاهر في الناس الحرية"^(٦). فبدون هذه الحرية يضيع الجسد في عبادة الطاغوت، ويضيع المال لالتحاقه بالسيد، ويضيع الغرض باسم الرق والعبودية. وهذا ما جعل التشريع الإسلامي يتشدد في مسألة الرق، وهو وإن لم يجرمها في صدر الدعوة لتغلغلها في الموروث الثقافي للشعوب، ولكنه ربط هذه القيمة بتشريعات كثيرة تكون باباً لتحرير الإنسان من عبودية الرق، كما أنط تحقق تشريعات أخرى بهذه القيمة «الحرية» مثل الميراث والزكاة والشهادة وغيرها.

١. العتق باب أساسي في الكفارات الشرعية وهو مصرف من مصارف الزكاة

في ما يتعلق بالكفارات فقد شرع العتق كحكم مترتب في عديد من الكفارات في الشريعة الإسلامية مثل: كفارة اليمين، و القتل الخطأ، والعتق يوجب الحرية...، بل إن الأصوليين تشددوا في العمل بكفارة العتق. يقول أبو حامد الغزالي متحدثاً عن وجوب تعيين المفتي لهذه الكفارة في حالات مخصوصة: "يقول المفتي لمن وجبت عليه كفارة اليمين: تصدق بعشرة أمداد من البر، لأنه يرى ذلك أسهل عليه من العتق، ويعلم من عادته أنه لو خير بينها لاختار الإطعام على الإعتاق ليسره، فيكون ذلك باعثاً على تخصيصه بالذكر"^(٧)، فالحرية في الشريعة الإسلامية حياة والرق تلف. وفي تفسير الإمام النسفي لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ﴾ [النساء: ٩٢]، قال مُعللاً هذا الحكم الذي وردت به الآية: "إنه - أي القاتل - لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها"^(٨).

وكذلك يندرج فك الرقاب من العتق ضمن مصارف الزكاة الثمانية؛ قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ

وَالْعَزِيمِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنَيْ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾
[التوبة: ٦٠].

٢. الحرية سبب في أهلية المكلفين

بدون الحرية يحرم الإنسان من أداء تشريعات كثيرة، ويفقد أهليته وحقوقه كإنسان كرمه الله ونادى بحفظ حقه في الحياة. ولأن الحرية من صفات الكمال، فإن الأدمي يصير بها أهلاً للولايات وتملك الأشياء، واستحقاق الكرامات الموضوعة للبشر. كما أن فقد الحرية يسقط عن صاحبه حق التعبد لله تعالى، وينقص من دينه، ويضيع حقوق الله تعالى لأن سبب الملكية، وهي الحرية يتعلق بها حقوق الله تعالى من وجوب الزكاة والجمعة وغيرها...، فمثل هذا التصور، وفقد الحقوق الناجم عن فقد الحرية هو الذي جعل الشريعة الإسلامية تشدد في تأكيد منح حق الحرية لكل إنسان، يقول السرخسي: "فإذا قال السيد لعبده أنت حرٌ ثم قال نويت به الحرية عن الرق والمملك، فإنه يكون ذلك بياناً صحيحاً، لأنه تقرير للحكم الثابت بظاهر الكلام لا تغيير له" (٩).

إن أهم نقطة في هذه المسألة أن فاقد الحرية «الرقيق» يفقد أهليته في حمل الأمانة التي حملها من قبل المولى ﷺ، وهي أمانة الاستخلاف في الأرض وإقامة دين الله في أرجائها...، وبذلك يفقد أهم مقوم من مقومات شخصية كمكلف. يقول السرخسي: "الله تعالى لما خلق الإنسان لحمل أمانته أكرمه بالعقل وألزمه ليكون بها أهلاً لوجوب حقوق الله تعالى عليه، ثم أثبت له العصمة والحرية والمالكية ليبقى فيتمكن من أداء ما حل من الأمانة، ثم هذه العصمة والحرية والمالكية ثابتة للمرء من حين يولد" (١٠).

٣. الشريعة تكفل حرية أهل الذمة في معتقداتهم وتشريعاتهم

إن الشريعة الإسلامية تضمن لمن كان في حماية الإسلام من باقي الملل حقوقهم في المواطنة والحرية في البقاء على معتقداتهم، والتعبد والتحاكم لشرائعهم وممارسة إرادتهم

المستقلة. يقول محمد الخضر حسين معلقاً عن هذه المعاملة لأهل ذمة المسلمين: "وابقاء المحكومين على شرائعهم وعوائدهم، منظر من مناظر السياسة العالية، وباب من أبواب العدالة يدخلون من قبله إلى أكتاف الحرية"^(١١). ويقول ابن حزم مبيّناً كفالة الشريعة لحق أهل الذمة ولحريتهم التي لا يجوز الاعتداء عليها: "وسورة براءة مبيّنة لأحكام أهل الذمة التي لا يجوز تعديها، وهي ناسخة لكل ما كان قبلها"^(١٢).

بينت نصوص الوحي أن احترام أهل الذمة واجب، وأمرت ببرهم والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. فالشريعة إنما جاءت لتكفل حرية الإنسان بمعزل عن كونه مسلماً معتقداً في صلاحيتها وملتزمأ بأحكامها، أم هو بخلاف ذلك. وإذا عرفنا ذلك ندرك مسألة مهمة وهي أن الشريعة الإسلامية إنما نادت بحرية الإنسان، لأن الحرية هي مفتاح تحقق ما نريده من هذه الشريعة، والمجتمع إنما ينمو بالحرية، فيعرف أبنائه ما يصلحهم من تشريعات فيختارونها ويلتزمون بها، ويقفون على ما هو فاسد منها فيردونه.

٤. علاقة الحرية بتنزيل الشريعة في واقع الناس

ومما يبين وجه العلاقة بين الشريعة والحرية، أن تنزيل الأحكام التشريعية وتطبيقها في واقع الناس مشروط بتهيئة المجتمع من خلال إشاعة مناخ الحرية، حتى يختار الناس ما يصلحهم من تشريعات وأحكام بإرادتهم الحرة ويدروون عن أنفسهم ما يرونه فاسداً مما شرع لهم، عندها يتأكد نجاح تطبيق الشريعة. فالحرية في الواقع سابقة على الالتزام بتطبيق الشريعة بدليل أن الله ﷻ لم يطالب الإنسان بالعبادات والتزام التكليف الشرعية إلا بعد سن البلوغ، وتحمل مسئولية الإرادة والاختيار. قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، كما أن طرح مسألة الأفضلية

بين الشريعة والحرية في تقديم إحداها عن الآخر أحسب أنه خلل فكري وقع فيه بعضهم، إذ الحرية مما فطر الله الإنسان على طلبه منذ ولادته، كما أن الإسلام - والشريعة جزء منه - كذلك مما فطر الله عليه الإنسان، ﴿فَفُطِرَ اللَّهُ أَلَنِي فُطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

إذن فلا جدوى من طرح مسألة تطبيق الشريعة والمناداة بها في ظل نظم شمولية تحكم المسلمين وتخضعهم لإرادة فرد أو حزب واحد معين، فالشريعة لا فائدة منها للناس، ولن تقوم قياماً سليماً ما لم يكن هؤلاء الناس أحراراً في اختياراتهم، وتطبيق هذه الشريعة نابعاً من قناعاتهم أنها جالبة لمصالحهم، دارئة عنهم المفاسد، فلا أولوية ولا أفضلية بين الحرية والشريعة من حيث تحققهما في حياة الإنسان، فكلاهما وجهان لعملة واحدة، واجتماعهما هو الذي يحققهما معاً، وتطبيق الأحكام الشرعية هو الذي يحافظ على حريات الناس في حدود ما رسمته الشريعة من ضوابط تنظم هذه الحريات ولا تصادرها، ونجاح تطبيق الشريعة هو الذي يضمن بقاء واستمرارية الحرية للجميع، وفي المقابل الحرية هي الطريق السهل إلى تطبيق الشريعة. إن مما يجب التحذير منه في هذا الشأن - وهو من الضرر بمكان - أن تُسَقَطَ الشريعة على المجتمع من غير توفير ضمانات نجاح هذا التنزيل للنصوص والأحكام، فالشريعة لا تقوم على الإكراه، أو أن ينصب الحاكم نفسه متكلماً باسم الرب والدين، فيقع في أشد الدكتاتوريات وهي الدكتاتورية الدينية التي جنت على العالم، وكانت سبباً في ملأ الأرض علمانية وإلحاداً، وطرده الدين وتشريعاته من حياة الناس. فالمجتمع الحر يجعله الشريعة رقيباً وحكماً على تصرفات أبنائه، وهذا هو الصواب وروح الشريعة والدين.

المبحث الثالث: الأسس الفكرية للحرية الدينية

الأساس الأول: الإرادة الإنسانية والقدرة على الاختيار

للقوف على قيمة هذا المبدأ أو الأساس المتعلق بالحرية نقف عند مصطلحات هذا الأساس فنشرحها.

- الإرادة: ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده، وأن يرجع عنه. أو بمعنى آخر: تردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك.

- القدرة: صفة بها الإيجاد والإعدام.

- الاختيار: ثبوت الصفتين السابقتين يستلزم بالضرورة ثبوت حرية الاختيار للفعل^(١٣).

وصنف العلماء الأفعال إلى ضربين:

الأول: ما يجبر عليه الإنسان من أفعال، مثال ذلك: «ما يودع في العقول من ذكاء أو غباء، الأمزجة وما يلبسها من هدوء أو عنف، الأجسام وما تكون عليه من طول وقصر، وجمال أو قبح، الزمان الذي يولد فيه المرء، والوالدان اللذان ينحدر منهما الإنسان، ما تتركه الوارثة من خواص وغلرائز وميول، الحياة والموت، الصحة والمرض، السعة والضيق في الرزق...، وغيرها من الأمور التي علمها الله وأرادها ونفذها استقلالاً ولسنا منها في كثير أو قليل».

والثاني: أفعال نشعر حين أدائها بيقظة عقولنا، وحركة ميولنا، ورقابة ضمائرنا^(١٤).

يقول صاحب جوهرية التوحيد متحدثاً عن كلا الصنفين من الأفعال: "والواجب اعتقاده: أن بعض أفعاله صادر باختياره، والبعض الآخر باضطراره، لما يجد كل عاقل من الفرق الضروري بين حركة البطش وحركة المرتعش"^(١٥).

فالصنف الثاني هو الذي يعيننا وتتعلق به حرية الإنسان وإرادته في الفعل، وأولها فعل الإيمان أو الكفر، وفي هذا الصنف يتحمل الإنسان مسئولية أفعاله. قال تعالى:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]. وإرادة الإنسان في هذه الأفعال - التي سبقت فيها المشيئة الإلهية - المتعلقة بحرية اختيار الإنسان، إنما هي سابقة إرادة الله في تقديرها بالإيجاد، وقد جاءت الآيات القرآنية تدلل على ذلك، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ [هود: ١٥]، وقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكُمْ أَمْتِعْكُمْ وَأَسْرِحْكُمْ سَرَاحَ جَمِيلٍ﴾ [الأحزاب: ٢٨].

فالإنسان مزود ضمن تركيبته النفسية بالإرادة، وهذه الإرادة هي التي جعلته يتعلق بحريته ويحبها ويسعى لامتلاكها، على اعتبار أنها وسيلة يعبر بها عن إرادته في جلب ما به صلاحه ودفع ما فيه فساد. قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

فهذه الآيات تدلل بوضوح على أن الإنسان في المفهوم الإسلامي والنظرة القرآنية كائن مختار وحر، وأنه مسؤول عما يصدر عنه من أفعال، وهذه المسؤولية لا يمكن أن تثبت إلا عبر امتلاك هذا الإنسان حريته، فالحرية والمسئولية متلازمان فيما يتعلق بالأفعال من العقيدة الإسلامية والفكر الإسلامي، والحرية هي المبدأ الذي يمكن الناس أن يختاروا ويقرروا ويفعلوا بوحى من إرادتهم وبمعزل عن أي ضغوط. قال تعالى

مقررًا مسئولية الاختيار للإنسان: ﴿مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩]. يقول القرطبي في تفسير هذه الآية: ”والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، أي ما أصابكم يا معشر الناس من خصب واتساع رزق فمن تفضل الله عليكم، وما أصابكم من جَدْبٍ وضيق رزق فمن أنفسكم، أي: من أجل ذنوبكم وقع ذلك بكم“ (١٦).

فالمولى ﷺ قد خص الإنسان بالإرادة الحرة في الاختيار، دون سائر المخلوقات لأفضليته وكرامته على الله تعالى، والمتأمل في القرآن يرى الآيات الكثيرة التي تؤيد مذهب الاختيار الإنساني، وهي أكثر من الآيات التي تقول بالجبر. كما أن المتتبع للقرآن يجد أن إسناد الإرادة فيه إلى الإنسان يكاد يكون ضعف إسنادها إلى الله ﷻ حيث ورد إسناد لفظ أراد أو مشتقاتها للإنسان في نحو ثلاثة وخمسين موضعاً في حين ورد إسناده إلى الله في نحو واحد وثلاثين موضعاً.

الأساس الثاني: الكرامة الإنسانية

لقد جاء الإسلام منذ بداية تنزيله ليقرر كرامة الإنسان وعلو منزلته، حيث بدأت أول آيات قرآنية في الإسلام بتحرير الإنسان من الجهل ونورت طريقه للعلم، وقراءة كل ما في الكون باسم الله وحده، وهذا هو التحرير الثاني من الآية حيث حررته من الارتهان كلياً لغيره من المخلوقات في فهم ما حوله من موجودات. قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]، وهذه هي أول خطوات التكريم للإنسان أن حررته من جهله ومن تبعية المخلوقات غير الراشدة.

لقد أوصى الإسلام كذلك باحترام الإنسان لأخيه الإنسان وعدم امتهانه واحتقاره لأنه مكرم عنده ﷻ. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. فتقرير

الإسلام لهذه الكرامة الإنسانية للإنسان مكفول وثابت للفرد والجماعة على السواء، رجالاً أو نساء، حكماً كانوا أو محكومين، ولا فرق فيها بين لون ولون، ولا بين جنس وجنس، وقد ذكر علال الفاسي في مقاصده أنواع الجهاد لتحقيق الكرامة، فجعل الجهاد للحرية أول أنواع هذا الجهاد، ثم قال: "الكرامة حق لكل أحد برأ كان أو فاجراً، تقياً أو عصياً" (١٧).

ومن مظاهر تكريم هذه الرسالة الإسلامية للإنسان، أن جعلته حراً في اختياره وإرادته، ولو كان الاختيار متعلقاً بالعقيدة والمرجعية الدينية التي يريد اعتناقها، ويتجلى ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله ﷺ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، كما أن وجود أناس على الإيمان وآخرين على الكفر منذ بدء الخليقة دليل ساطع على هذه الحرية التي منحها الله لعباده، فقد زود العنصر الإنساني بالملكة العقلية التي بها يتاح إعمال الفكر، وحرية الاختيار بين طريقي الحق والباطل، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البدر: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَنَقَّسَ وَمَاسُونَهَا﴾ ٧ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ٨ [الشمس: ٧-٨].

ومن المظاهر الدالة كذلك على تكريم الإسلام لهذا الإنسان، أن حرمت الشريعة الاعتداء على حريات هذا الإنسان وحرماته: حرمت سفك دمه وقته إلا بحق فتحفظ بذلك حرته في حب خصوصية التملك، ففي الحديث النبوي: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه» (١٨)، وحرمت الشريعة كذلك التجسس عليه والاعتداء على أمنه وطمأنينته واستقراره في مجتمعه وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْنَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وفي الحديث عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن

فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسبوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تنافسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً» (١٩).

إن الغاية الوجودية للإنسان في حد ذاتها تعتبر دليلاً على هذه الكرامة للإنسان وحرية. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالآية مقصدها تحرير الإنسان من عبودية غير الله وتعمير الأرض بعقيدة التوحيد، و عدم حني الإنسان هامته إلا لله سبحانه الذي خلقه وأنعم عليه.

الأساس الثالث: التكليف الشرعي

التكليف في اللغة مأخوذ من الكلفة وهي التعب والمشقة، يقال: تَكَلَّفَ الأمر إذا فعله على كلفة ومشقة فهذا أصله في اللغة، ثم أطلق التكليف في الشرع على الأمر والنهي لأن المأمور بالفعل يفعل ما أمر به على كلفة من غير أن يدعوه إليه طبعه (٢٠).

والتكليف أقسام مقصورة على ثلاثة أوجه: أمر ونهي وخبر. فالتكليف بالأمر كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]، ونحوه، والتكليف بالنهي كقوله: ﴿لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: ٦١]، والتكليف بالخبر على ضربين؛ أحدهما: في معنى الأمر كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والثاني: خبر في معنى النهي كقوله تعالى: ﴿لَا يَمْسَسُهَا إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] (٢١).

لقد سبق معنا أن حرية الإنسان تبدأ فعلياً بعد بلوغه ورشده، ودخوله دائرة التكليف الشرعي حيث يصبح مسؤولاً عن حرية اختياره وكسب أفعاله، "فمن شرائط وجوب الفعل أن يكون المكلف قادراً إما على الفعل أو على تركه لكي يصح منه الطاعة بفعل المأمور به أو المعصية بتركه" (٢٢). وهذا ما يجعل من التكليف الشرعي قاعدة أساسية في بناء الحرية لدى الإنسان، والعبد المسلوب الحرية بالتأكيد منقوصة قدرته على الفعل.

المبحث الرابع: ضوابط الحرية

لقد كفل الإسلام منذ عهد التنزيل حرية الإنسان وراعى ذلك في تشريعاته وأحكامه التي نزلت بها نصوص الوحي، ولكنه لم يطلق هذه الحرية على عواهنها ليمارسها الإنسان متى أراد، وكيفما أراد، بل جعل لها ضوابط تحكمها، وأحكاماً تقيد بها حتى تتحقق مقاصدها الخيرة للفرد والجماعة على حد سواء. وتتمثل هذه الضوابط في الآتي:

١. ألا تؤدي حرية الفرد إلى الإضرار بالمجتمع وبحرية الآخرين، ففتوت بذلك حقوقاً أعم. فحرية الفرد وحقوقه شرطها أن لا تضيق معها حرية الآخرين وحقوقهم، والفرد لا يمكنه أن يستأثر بحرية فائضة عن حدوده ومستقطعة من حرية الآخرين دون وجه حق، فحرية إنما تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين، والإسلام لم يمنح الحرية للفرد على حساب حرية باقي الأفراد داخل المجتمع، كما أن الإسلام منع التعارض بين كلا الحريتين: حرية الفرد وحرية الجماعة، ووازن بين كلا الطرفين فأعطى كلاً منهما حقه. واصطدام حرية الفرد بحرية الآخرين مجتمعين له نتائج سلبية، ومن أهمها أنه يؤدي إلى تناقض في المنظومة الاجتماعية لدرجة تفسخ هذه المنظومة وانحلالها تحت مطرقة الاعتداء على القيم والمثل الاجتماعية والأخلاقية باسم حرية ممارسة أي فعل. فالحرية لا تعني البتة التحرر من كل قيد لأن ذلك هو عين الفوضى لا الحرية، إن من الضروري أن يحتفظ كل فرد من الأفراد بنصيبه من الحرية بعيداً عن تدخلات الآخرين، ولكن ذلك لن يتحقق في واقع الأمر إلا في ظل تنازل كل فرد عن جزء من هذه الحرية لحساب مجتمعه.

٢. أن تكون الحرية منضبطة بحدود الشرع ومتحررة من الشهوات. فالحرية الحق هي الحرية المندرجة في حمى الدين، والمقيدة بضوابط الشرع فتحكم تصرفات الإنسان وفقه، والموافقة لمقصد الشريعة في جلب المصالح ودرء المفاسد، ويكون الإنسان

معها محرراً من سائر العبوديات الأخرى غير عبودية الله ﷻ، وأولها شهواته الضارة بنفسه وبمجتمعه، يقول محمد قطب: "ومع أن هذه الحرية تكريم رباني تفضل الله به على الإنسان فإن بعض الفطر تنكس مستخدمة حريتها في عصيان الله والاستكبار عن عبادته، بدلاً من أن تختار الهدى وتستقيم عليه" (٢٣).

إن حد الشريعة من حرية الإنسان في نيل كل شهواته، إنما مقصده الحفاظ على هذه الحرية المستمرة للإنسان، وحكمته التحرر من عبودية الشهوة واللذة والانفكاك من أسرها لأن في ذلك الأسر للشهوة ضرر للفرد والمجتمع. فالحرية لا تتم أحياناً إلا بالمنع، ألا ترى أن منع المريض مثلاً من طعام مضر، إنما هو منع مؤقت لممارسة حريته يكفل له بعد ذلك حريته الكاملة في تناول ما شاء بعد شفائه، وكذلك سجن المجرم لفترة فيه تقييد لحرية الحركة وممارسة الحياة الطبيعية ولكن الغاية من ذلك أن يعرف قيمة حريته ويتعلم كيفية ممارستها في سائر حياته الباقية فلا يؤدي نفسه وغيره.

إن المتأمل في الديانات السابقة يلحظ توافقها مع الإسلام في هذا المفهوم للحرية الذي يحرر الإنسان من نرجسية ذاته وحبها، فلا يمنعها عن الشهوات. وقد نهى كتاب المسيحيين المقدس استغلال هذه الحرية لمصلحة الجسد وقد جاء في أناجيلهم: «فأنتم يا إخواني دعاكم الله لتكونوا أحراراً، ولكن لا تجعلوا هذه الحرية حجة لإرضاء شهوات الجسد، بل اخدموا بعضكم بعضاً بالحب» (٢٤). ولكن في مقابل ذلك نجد أن الغرب حين انسلخ عن مسيحيتهم بعد أن نسب أخطاء رجال الكنيسة للدين واختارها علمانية لا قيد فيها على حرية الإنسان، ماذا حصل؟! وهل وصل للسعادة المنشودة؟! كلا، إنما وصل إلى مجتمع انحدرت أخلاقه، مجتمع مفكك تنتشر فيه الجريمة باسم الحرية الشخصية للأفراد، مجتمع يعتبر رمزاً للمجون والفجور والإباحية المطلقة، وسوقاً للمخدرات والرقيق الأبيض، ولا قيد أو ضابط في ممارسة

هذه الحرية والغاية عندهم تبرر الوسيلة. هكذا قررهما ميكافلي أحد جدودهم. وقد رفعت رائدة الثورات في الغرب «الثورة الفرنسية» شعار «دعه يفعل دعه يمر laissez fair laissez passer»، فلا قيد لأحد على أحد ولا قيد فيما يرى الإنسان فيه ما يُتَوَهَّمُ منفعته.

٣. أما الضابط الثالث من ضوابط الحرية فهو أن تكون هذه الحرية قائمة على أساس من قاعدة التوحيد والعبودية لله: فلا حرية للإنسان إلا بتوحيد الله وعبوديته وحده، لأن ذلك مما يحزره من عبودية النفس والشیطان والناس وسائر المعبودات الأخرى المذلة للإنسان. فالحرية الحقيقية هي أن يتحرر القلب من سائر العبوديات، ويخلص لعبودية الله وحده، ولا يتلقى الأمر والنهي في التشريعات إلا منه ﷻ لأنه أعلم بما يصلحه في دنياه وآخرته، وقد ربى النبي ﷺ أصحابه على حرية الرأي في مستوياتها المختلفة، فكان ذلك يصوغ عقولهم على صفة التوحيد والمؤالفة في تفسير الأحداث، وفي تقرير الأحكام التي صاغوا بها الحياة الإسلامية المتواسعة لتكون وجهتها موحدة الهدف إلى الله تعالى (٢٥).

إذن نختم هذه المسألة فنقول إن الحرية المطلقة هي فكرة خيالية على رأي البعض، وإنما ضرب من الفوضى داخل المجتمعات.

المبحث الخامس: حب الحرية فطري في الإنسان

إن الحرية من القيم التي تلتقي عندها مشاعر البشرية جمعاء، فهناك صلة عاطفية أصيلة تربط الجميع بهذه القيمة - الحرية - منذ بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا، ويخطئ من يظن أن الحرية هي ظاهرة حديثة في تاريخ الإنسانية وكونها نتاج الكيانات الحضارية التي مر بها الإنسان في حياته على الأرض. فالحرية مركوزة في فطرة الإنسان، وهو مجبول على حبها وطلبها منذ اللحظة الأولى لولادته. يقول الباحث المصري محمد سليم العوا:

”إن حرية الإنسان مقدسة - كحياته سواء بسواء - وهي الصفة الطبيعية الأولى بها يولد الإنسان: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»^(٢٦)، وهي مستصحبة مستمرة ليس لأحد أن يعتدي عليها»^(٢٧).

فالحرية منحة إلهية فطرية وليست منحة تشريعية، ”الحرية حقيقة تكوينية في الإنسان، ليست تشريعية معطاة. فالتشريع، أي تشريع كان، لا يمنح الإنسان الحرية لسبب أساسي، وهو أن الحرية موجودة تكوينياً في الإنسان، فالإنسان خلق حراً، وكل ما على التشريعات سواء كانت وضعية أو إلهية هو أن تمنع مصادرة هذه الحرية أو العبث بها»^(٢٨).

فالحرية إذن خلق رباني مركوز في نفس الإنسان منذ ولادته وليس غريزة لأنها لو كانت غريزة لما استطاع أحد تفويتها عن نفسه. يقول علال الفاسي: ”الحرية الإسلامية جعل قانوني يتفق مع إنسانية الإنسان وفطرته، وليست حقاً طبيعياً يستمد من غريزة الرجل المتناقضة»^(٢٩).

المبحث السادس: الحرية في الإسلام تبدأ بعد نزول الوحي والتكليف الشرعي

لقد سبق الحديث عن ضرورة انضباط الحرية بضابط الدين والشريعة، وهذا يعني أن الإنسان لا يمكنه أن يمارس هذه الحرية المسؤولة كما أراد له خالقه إلا بعد نزول الوحي المبين لحدود هذه التشريعات الدينية، حتى لا تتحول الحرية إلى فوضى وعبودية للشهوات التي لا حدود لها، وما يصحب ذلك من فساد للفرد والمجتمع على السواء. فبنزول الوحي يدرك الإنسان التكليف الشرعية الجالبة لمصالحه المانعة لمفاسده، وعليه يتضح أن الحرية الحقيقية المسؤولة إنما تبدأ مع نزول الوحي الذي يرشد الإنسان لضوابط هذه الحرية حتى تكون نفعاً لا ضرراً. هذا على المستوى الإنساني العام، أما على المستوى الفردي الخاص فإن الحرية لا يمكن ممارستها فعلياً إلا بعد التكليف الشرعي

لكل فرد وهو سن البلوغ، حيث يصبح الإنسان مسؤولاً عن أفعاله يحاسب عليها. يقول غلال الفاسي في مقاصده: "فالإنسان ما كان ليصل لإدراك حريته على الوجه الذي أراده الإسلام لولا نزول الوحي، ولولا الرشد الديني الذي جاء به القرآن. إن الحرية لا تعني أن يفعل الإنسان ما يشاء ويترك ما يريد، فذلك ما يتفق مع طبيعة شهوته، ولا يتفق مع طبائع الوجود كما ركب عليه، ولكنها تعني أن يفعل الإنسان ما يعتقد أنه مكلف به، وما فيه الخير لصالح البشر أجمعين. وإيمان الإنسان بأنه مكلف هو أول خطوة في حريته" (٣٠).

المبحث السابع: الحرية قاعدة التوحيد والعبودية لله ﷻ

إن عقيدة التوحيد هي مفتاح التحرر من سائر المعبودات الأخرى من دون الله التي أسر فيها الإنسان نفسه، فهي عقيدة تستمد أوامرها وتوجيهاتها التربوية من نصوص الوحي القرآني والنبوي، وهذا ما يجعل لها أثراً في حياة معتنقيها، بخلاف الحريات الأخرى القائمة على أفكار وعقائد مصطنعة. فالإنسان لا تحرّكه في عملية الإصلاح ونشر الفضيلة عصا القوانين البشرية بقدر ما يردعه عن الرذيلة ويحفزه على الفضيلة الوازع الإيمان بما تلقاه من أمر ونهي من الدين. ولو أردنا التدليل على ذلك لاكتفينا بمسألة تحريم الخمر، حيث نعرض تجربتين متناقضتين.

الأولى: التجربة الإسلامية، فبرغم تعلق العرب بالخمرة ولعهم بها حتى أن جل أشعارهم تفتخر بمعاقرتها، ولا يتسامرون إلا بحضورها، ولكن عندما نزلت الآيات بتحريمها تحريماً قطعاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، قالوا: سمعنا واطعنا (انتهينا - انتهينا)، وأهقرت جميع خمرة المدينة بأيدي من تشربها حباً لسنين عدداً حتى ملأت شوارع المدينة.

والثانية: تجربة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية رأس المنظومة الغربية ورمز الاستكبار العالمي حيث سنت قانوناً يحرم الخمر لإدراكها خطورتها على المجتمع، وصرفت على ذلك ميزانية ضخمة، وسخرت وسائل إعلامها في حملة توعية كبيرة، ولكن كان الفشل حليفها، لأن الإنسان الذي ليس على عقيدة الدين يصعب عليه أن يعتق نفسه من رق شهواته ورغباته، لأنه لم يظفر في ظل حضارته بتحرير حقيقي لروحه وفكره، بل علموه بأنه لا حدود لحرية وأن الغاية تبرر الوسيلة.

إن عقيدة التوحيد هي سند الإنسان في التحرر الداخلي، وهي كذلك تحطم في نفسه كل الأصنام والوثنيات التي تسلب حريته، ويرى محمد باقر الصدر أن ظاهرة الصنمية في حياة الإنسان نشأت عن سببين: أحدهما: عبوديته للشهوة التي تجعله يتنازل عن حريته إلى الصنم الإنساني الذي يقدر على إشباع تلك الشهوة وضمانها له. والآخر جهله بما وراء تلك الأقنعة الصنمية المتألهة من نقاط الضعف والعجز. والإسلام حين حرر الإنسان من عبودية الشهوة وزيف تلك الأقنعة الخادعة كان طبعياً أن يتصر على الصنمية، ويمحو من عقول المسلمين عبودية الأصنام بمختلف أشكالها وألوانها...، لأن الإسلام الذي جاء لتحرير الإنسان بالتنازل عن أساس حريته، والانغماس في عبوديات الأرض وأصنامها، كما أن الإسلام لا يعتبر عقيدة التوحيد مسألة سلوك شخصي خاص، كما ترى الحضارات الغربية، بل هي القاعدة الأساسية لكيانه الحضاري كله (٣١).

لقد جاء رسول الله ﷺ رافعاً لواء «لا إله إلا الله» يعمر بها الأرض بعد خرابها من مشارقها إلى مغاربها، الناتج عن تشتت الناس بين معتقدات وثنية أو أديان إلهية حرفها أتباعها فحادت عن خط التوحيد لله ﷻ، رفع رسول الله ﷺ هذا الشعار ثورة على كل هذه الشراكيات والوثنيات، كذلك ثورة على تأليه الإنسان لأخيه الإنسان، وأرسى بدل ذلك عبودية واحدة، هي عبودية رب العالمين وخالق الأكوان، وبين الإسلام أن

الإنسان ليس عبداً للطبيعة ولا لآثارها، كما حرره من عبودية الشيطان والنفس والهوى، وسائر ما يمكن أن يكون سبباً في إذلاله لأنه كائن كريم على الله وفصله على سائر المخلوقات. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ رِزْقَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. لذلك صغرت في عين العاقل المادة فتحرر من عبوديتها، وصغرت في عينه معظم الشهوات ففك أسرهم منها، ورأى المخلوقات جميعاً على حقيقتها فرد الخوف منها، وظل قلبه عامراً فقط بالخوف من الله ﷻ، والتذلل إليه وحده ﷻ. وهذا التحرر والانقلاب النفسي هو الذي جعل ربي بن عامر رسول جيش المسلمين يخاطب ملك الفرس عندما سأله عن سبب مقدمهم إلى مملكته: «لقد جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» (٣٢)، فتوفر مناخ الحرية في الصدر الأول من الدعوة، وهو الذي جعل خاصية التوحيد أكثر وضوحاً وشيوعاً في المجتمع الإسلامي، بخلاف عصر الجمود العلمي والفكري وغلق باب الاجتهاد وتعطيله، وانغماس العلماء في جزئيات وفروع العلوم والمعارف.

يقول عبد المجيد النجار مبيناً أن الحرية هي المدخل إلى الإيمان الحق: "وقد تقرر في التعاليم الإسلامية أن الحرية هي المدخل المعتبر إلى الإيمان الحق، فلا يكون الإيمان بالعقيدة إيماناً كاملاً في ميزان الدين إلا إذا انبنى على حرية النظر" (٣٣). فالحرية الحقيقية تتمثل في خلو القلب من سائر المعبودات الأخرى غير عبودية الله ﷻ، العبودية التي تجعل الإنسان لا يتلقى الأمر والنهي إلا ممن خلقه وصيره بنعمته إنساناً سوياً. يقول ابن تيمية رحمه الله: "فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق، لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتياال في الخلاص، وأما إذا كان القلب رقيقاً مستعبداً لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض، فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب" (٣٤).

إن إقامة الحرية على غير أساس عقيدة التوحيد دليل فساد عقل من أراد ذلك، لما سينجر عن مثل هذا الفعل من تصرفات مخالفة للسنن الإلهية في الكون، وقد ضرب لنا القرآن مثلاً على ذلك بقوم فرعون ومن سار على منهجهم في تفسيرهم الخرافي للظواهرات والأحوال التي يكون عليها الناس، حيث يرون أن الرخاء سببه أعمالهم الصالحة وأن القحط الذي أصابهم سببه شؤم موسى وأتباعه من المؤمنين قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣١]. يقول ابن عاشور:

”وحسبوا وجود الله يخالف دينهم بينهم سبباً في حلول المصائب والإضرار بهم، فتشاءموا بهم، ولم يعلموا أن سبب المصائب هو كفرهم وإعراضهم، ...، وهذا من العماية في الضلالة، فييقون منصرفين عن الأسباب الحقيقية، ولذلك كان التطير من شعار أهل الشرك، لأنه مبني على نسبة الأسباب لغير أسبابها، وذلك من مخترعات الذين وضعوا لهم ديانة الشرك وأوهامها“ (٣٥).

وبعد ما ذكر فهل يعقل أن يكون الإنسان عبداً لغيره وقد جعله الله حراً؟؟!

المبحث الثامن: حرية المعتقد

١. حرية المعتقد مبدأ إسلامي أصيل

لقد جاء الإسلام منذ بدء تنزل الوحي على محمد ﷺ محترماً إرادة الإنسان في سلوك واختيار ما يبدو له أنه معتقد قد يكون أساساً يستمد منه منهجه الفكري في الحياة، وهو بذلك يرسي مبدأ أصيلاً ومقصداً مهماً في تشريعاته، وهو مبدأ ومقصد الحرية الدينية. وخطاب الوحي واضح جلي قطعي في تقرير وبيان هذه الحقيقة. يقول المولى ﷺ في محكم كتابه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ

فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ [البقرة: ٢٥٦]، اتفق أهل العلم في تفسير الدين في الآية بأنه المعتقد والملة (٣٦). وسبب نزول هذه الآيات يدل على ما ذكر من حرية اختيار الإنسان لعقيدته. يروي القرطبي في تفسيره هذه الرواية: "قال السدي: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين كان له ابنان فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام. فأتى أبوهما رسول الله ﷺ مشتكى أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله ﷺ من يردهما فنزلت «لا إكراه في الدين» ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب وقال: «أبعدهما الله هما أول من كفر»، فوجد أبو الحصين على النبي ﷺ حين لم يبعث في طلبهما، فأنزل الله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿١٥﴾ [النساء: ٦٥] (٣٧). كما أن سبب نزول آية النساء الأخيرة يدل ويؤكد كذلك أن مقاصد الدين ومنها الحرية الدينية مقدمة على محاب النفس، وعلى المصالح الخاصة للأفراد.

إن احترام إرادة الإنسان في اختيار ما يراه من معتقد، وكفالة الإسلام لحرية الأفراد الدينية، هو مبدأ تتجلى فيه مظاهر تكريم الإنسان في أوضح وأجراً صورة. يقول سيد قطب وهو يرشدنا من خلال ظلال آية البقرة في عدم الإكراه على الدين: "ومن هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحمله تبعة عمله وحساب نفسه، وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني" (٣٨)، بل إن سيد قطب رحمه الله يذهب إلى أن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان، وبها تثبت إنسانيته، وسلبها إنما هو سلب لهذه الإنسانية (٣٩).

وأدخل العلماء في الإكراه ممارسة الضغوط المختلفة كالحبس، أو الضرب، أو الإجماع، أو الإغراء حتى يسلم المرء. فالعاقل عليه أن يختار الدين الحق بلا إكراه،

والإسلام يمنع كذلك أي شكل من أشكال التسلط على العقيدة والتحدث باسم الدين والرب لفرض عقيدة ما بالقهر والتحكم، أو نصب النفس واسطة بين الرب وعباده لأن ذلك اعتداء على حرية الناس ومنعهم من حرية التواصل مع خالقهم، وقد جاءت النصوص بيّنة في ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلِقَائِهِمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

كما أن وجود فريقين من الناس، فريق مؤمن وآخر كافر هو مما اقتضته حكمة الله من خلق عباده، وقد جعل المولى ﷺ الاختلاف العقدي والفكري سنة كونية تجري على العباد منذ بدء الخليقة، فالناس متفاوتون في كسب الإيمان والتزام الأحكام، يختارون لمعتقداتهم وأعمالهم، لأن الله سبحانه اقتضت حكمته أن يخلق عباده مختلفة عقولهم، وإدراكاتهم، وأحوال تفكيرهم، ولو أن الله سبحانه جعل الناس أمة واحدة بناء على أصل فطرهم وغرائزهم، لاختلاف بينهم في العقيدة والفكر لأصبحوا كالملائكة مخلوقين على الطاعة والانقياد للدين، مسلوبة إرادتهم، وذلك يعتبر فقداً لمبدأ الحرية الدينية. يقول المولى ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، وهذه الآية تؤكد ما جاء في آية البقرة من عدم الإكراه في الدين من باب الحرص على جعل الناس جميعاً على نهج واحد في حياتهم.

٢. الواجب على الإنسان اختيار طريق الإيمان

إن الإسلام مثلما منح الإنسان حريته في اختيار عقيدته بعد أن بين له طريق الخير والسعادة، والشر والشقاوة، وبعد أن كرمه بالعقل وأرسل إليه الرسل لتوجيهه لما فيه خيره وصلاحه، قد أوجب عليه اختيار طريق الإيمان والإسلام. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فهذه الآية فيها إشارة مهمة، وهي أن المراد بحرية الاعتقاد هو عدم إكراه الإنسان

على عقيدة الإسلام، وليس مراده إقرار الإنسان على اختيار طريق الكفر، فالإنسان حرٌّ في اختيار عقيدته، ولكن الواجب في حقه أن يختار عقله وقلبه طريق الإيمان والإسلام لله رب العالمين، الذي أنعم عليه بالخلق والرزق.

إذن فهناك تلازم بين حرية الاختيار والإيمان، وذلك أن الإيمان هو قاعدة الحرية الحقة التي يحقق بها الإنسان ذاته، وتجعل قلبه معلقاً بالله ﷻ، فالحرية حرية القلب من أدران الشرك، والعبودية عبودية القلب للشهوات والطاغوت، والعاقل هو من يرى قلبه بنور الله، فيختار ما يصلح دينه ودنياه، ويسعده في الدارين. قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ۝١٠٤﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝١٠٨﴾ [يونس: ١٠٨]. فمن أراد أن يستمسك بالحق، وبميثاق الله وعهده، فليجعل فطرته التي فطره الله عليها تتناغم مع غايته الوجودية في هذا الكون من عبوديته لله وحده، وتعمير للأرض بالإيمان والتقوى لله ﷻ. ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهذه الآية ترشد الإنسان إلى الطريق الذي يتوجب عليه سلوكه بعد أن تبين الرشد من الغي. والطاغوت في الآية فسرہ العلماء بأنه الشيطان، "وقيل: هو كل ما عبد من دون الله تعالى" (٤٠)، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، فالإيمان والإسلام هما النعمة الكبرى التي رضيها لنا الله ﷻ ولم يرص لنا سواها، ولن يرضى لنا الاختلاف عنها بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَفَرُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شُرِكَاءَ لِّسِتِّهِمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام:

[١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكَ لَئِنَّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فَطَرْتُ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ ﴿مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَأَتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٣٠-٣٢]. فالعاقِل لا يحتاج إلى الإكراه في الإيمان وذلك للعلل الآتية:

أ. وضوح طريق الغي والضلال، وطريق الرشاد والنجاة، ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ثم بعد ذلك يأتي دور الإرادة الإنسانية في اختيار أحد الطريقين، مع تحمل مسؤولية هذا الاختيار وما سيتبعه من ثواب أو عقاب.

ب. وضوح دلائل وبراهين الإيمان، وحقيقة الدين.

ج. المكروه غالباً لا يرى خيراً فيما ألزم عليه من فعل، والإيمان بلا شك أساسه التصديق الجازم، واليقين القاطع.

د. العاقل متى تبين له طريق الكفر والإيمان، بادرت نفسه وفطرته السليمة لاختيار النهج الإيماني للفوز بالنجاة والسعادة، ولن يحتاج للإكراه.

يقول البيضاوي في تفسيره معللاً اختيار العقلاء للإيمان وهو يفسر آية البقرة في عدم الإكراه في الدين: "الإكراه في الحقيقة إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً يحمل عليه، ولكن «قد تبين الرشd من الغي» تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة. ودلت الدلائل على أن الإيمان رشd يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غي يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه للإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء»^(١).

فمن ظهر دخوله في أي دين تحت الإكراه، فإنه لن يكون مؤمناً بذلك الدين حقاً لأن قلبه سيكون مخالفاً للسانه الذي أمر به أنه دخل في ذلك الدين، أما في الإسلام فإن

الأمر خطير لأن مثل هذا الدخول الذي يخالف فيه القلب اللسان إنما يتحول إلى نفاق، والنفاق أشد من الكفر بصريح قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، فالقلب لا سلطان لأحد من العالمين عليه حتى تدخل ما يشاء فيه كرهاً! وقد أنزل المولى ﷺ في حق عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي قال بلسانه كلمة الكفر لمشركي قريش ليدرأ عن والديه العذاب: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، فالعقيدة والإيمان لن يتحققا للمرء إلا أن يصدرا عن اعتقاد قلبي جازم مخلص لله ﷻ، مطمئن صادق، يقول محمد الطاهر بن عاشور متحدثاً عن سلبات الإكراه في الدين: ”فإن التزام الدين عن إكراه لا يأتي بالغرض المطلوب من التدين، وهو تزكية النفس، وتكثير جند الحق، والصالح المطلوب“ (٤٢).

بالإضافة إلى هذا فالمكره حالما تزول عنه أسباب الإكراه فإنه يعود لكفره وضلاله لعدم تعلق قلبه بما أكره عليه وعدم اقتناعه به. يقول السعدي في تفسيره متحدثاً عن الحكمة من عدم الإكراه على الدين والعقيدة: ”هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد؛ فلكماله وقبول الفطر له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين ورده ولم يقبله، فإنه لعناده“ (٤٣).

إن طبيعة الإيمان لا ينفع معها إلا حرية الاختيار والاقتناع بما يصرح المرء باعتقاده، فأصل الإيمان أنه أمر خفي بين العبد وربّه لأنه لا يعلم حقيقة السرائر إلا الله ﷻ، وعليه

فإنه لا يمكن فرضه أو نزعته من الضمائر، وفعل ذلك يتعارض مع النصوص الصريحة. فالإيمان يقوم على الهداية، ولا يصلح معه إلا حرية الاختيار، والإرادة الحرة في كسب الفعل.

إن صحة التصورات الإيمانية لدى الإنسان وسلامتها تكسب صاحبها أمرين مهمين:

الأمر الأول: الإيمان بمبدأ الحرية الدينية وعدم الإكراه في الدين، لأن صاحب الإيمان الصحيح، يدرك بأن الإيمان إنما يقوم على الهداية، كما يدرك أن الاختلاف سنة كونية بين العباد، وأن الإنسان هو المستفيد الأول والأكثر من هذا الإيمان، فتتحول هذه الإدراكات فهماً والتزاماً لما صرح به الوحي من نهى عن القهر والقسر في اتباع الدين والعقيدة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الأمر الثاني: العصمة من التعصب والغلو بعد إدراك فحوى النصوص الداعية للحرية الدينية فيخرج صاحب هذا الإيمان من دائرة التشدد في الدعوة لدين الله أو نصب النفس وصياً على الدين، وتوخي منهج التوازن النفسي والاعتدال الذي ينعكس إيماناً بحرية وإرادة الآخرين في اختيار ما يعتقدون صلاحه لهم كمنهج حياة.

٣. الموقف الديني ممن اختار الكفر والضلال عن الإيمان

لقد تنزلت نصوص الوحي على محمد ﷺ تدعم مبدأ عدم الإكراه في الدين، وتبين أن الاختلاف عن الدين سنة جارية بين البشرية منذ الأزل، وأن الصراع بين الحق والباطل في هذه الحياة الدنيا هو كذلك سنة ماضية إلى يوم القيامة، كما بين المولى ﷺ أن حكمته اقتضت خلق الجنة ليكون لها أهلها، والنار كذلك، ولو أراد الله للبشرية أن لا يتخلف أحد منهم عن الإيمان لكان ذلك ولكنه لم يفعل! قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَكَلَّيْنَا حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣).

[السجدة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ وَهُوَ قُلٌّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَلَا تَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ لِّمَا تَعْبُدُونَ ۚ لَكُم دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۖ﴾ [الكافرون: ١-٦].

فمسألة الكفر مسألة بين العبد وربّه ولا دخل لأحد فيها، ولا سلطان للمسلم على الكافر إن بلغه الدعوة ولم يؤمن، ورضي بالكفر. فالمطلوب من الرسول ﷺ والمؤمنين من بعده الصبر وعدم الجزع على من لم يستجب للدعوة واختار طريق الكفر. وقد حذرت آيات كثيرة الرسول ﷺ من الإساءة لمن يرفض الدعوة، نعرض لطائفة من هذه الآيات القرآنية تأكيداً لهذه القيمة التربوية الإسلامية وقطعاً للطريق على غلو المغالين، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتَهُم نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْأَمْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَقْتَ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٥]، وقال: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلُوعٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٧]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦١﴾﴾ [الشورى: ٦]، وقال: ﴿إِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

حَفِظْتُ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْعُ ﴿[الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

فهذه الآيات ونظيراتها تدلل بوضوح لا تأويل فيه أن مهمة الرسول ﷺ، أصلها وأساسها البلاغ والبيان فقط.

إن المعرض عن الإسلام ودعوته بعد أن تُبَيَّن له طريقا الغي والرشاد عليه وحده أن يتحمل مسؤولية حرите واختياره وتوجه إرادته لغير ما أراد له خالفه، خصوصاً وأن الإنسان هو المستفيد الأول من إيمانه قبل مجتمعه، فعليه إذن أن يتحمل أوزاره بنفسه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. يقول البغوي في تفسيره للآية الأخيرة: ”وهذا على سبيل التهديد والوعيد“^(٤٤). ويؤكد هذا الرأي بيان مصير المؤمنين في الآية التالية مباشرة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠]، والتهديد هنا إنما هو لمصلحة الإنسان نفسه لأن الله ﷻ لا ينفعه إيمان مؤمن، كما لا يضره كفر كافر. يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(٤٥). ويقول الطبري متحدثاً عن مسؤولية الاختيار المنحرف: ”فإن من حاد عن الرشاد بعد استبانت له، فإلى ربه أمره، وهو ولي عقوبته في معاده“^(٤٦).

٤. مهمة الرسل قائمة على البلاغ والبيان والنصح وحرية الاتباع

إن المتأمل في حياة الأنبياء والرسل ﷺ جميعاً والمتتبع لسيرتهم الدعوية إلى الله يجدهم جميعاً نماذج متقاربة متشابهة، ديدنهم نشر الخير للبشرية، وهدفهم بناء مجتمعات مؤمنة صالحة، الحوار والبيان للحق أسلوبهم، والنصح والموعظة الحسنة نهجهم، ومراعاة حرية الناس في اختيار عقيدة التوحيد والإيمان أخلاقهم وسيرتهم، والبشارة والندارة حدود دعوتهم. ودليل ذلك كله ما أخبرنا به الوحي الخاتم - المنزل على سيد ولد آدم، أولهم وآخرهم محمد بن عبد الله ﷺ - عن طبيعة الرسالات السابقة قال تعالى:

• في دعوة نوح ﷺ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

• وفي دعوة هود ﷺ: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٧] أَلَيْفَ كُنتُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧-٦٨].

• وفي دعوة صالح ﷺ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۖ فَذَجَأْتُمْ بَيْنَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣].

• وفي دعوة موسى وهارون ﷺ: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [٤٣] فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَئِيْلًا ۚ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

• وفي دعوة عيسى بن مريم ﷺ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ مَائِثِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ١٦].

• وفي دعوة محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، وقال: ﴿وَأَن تَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

وقد جاءت آيات أخرى عامة تبين منهج الرسل في الدعوة، تبين نهجهم التغييري لنفوس أقوامهم، واستبعاد المنهج الإكراهي في الدعوة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦].

إذن فالرسل مطالبون بالبلاغ لا الإكراه، والواجب في حق الناس إيجابتهم إلى عقيدة التوحيد، لا الضلال والانحراف عن الحق، قال تعالى: ﴿فَإِن آسَأَلُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَنَحْنُ لَا عَابِدَ إِلَّا لَهُ وَلَا حَرَمَ مَن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانٌ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا أَلْبَانٌ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال: ﴿فَإِن آعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِن عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَانٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

فمثل هذا الخطاب القرآني يفترض أن يمنع محاولات بعض من سلك طريق الدعوة فرض الدين بقوة الإكراه والقسر، ومحاولة التآسي بأنباء الله ورسله ﷺ في اتباع أسلوب الحوار والإقناع، والنصح، وتوخي لين القول والموعظة الحسنة، ثم إن الدين ليس في حاجة لزخم من المنافقين يقولون ما لا يصدقون بقلوبهم، بل حاجته أوكد لقلّة صادقة من المؤمنين تنطبق بواطنهم مع ظواهرهم، يحملون راية التوحيد ودعوته،

ويوسعون دائرة زمرة المؤمنين المخلصين. ومن خلال ما مر معنا من آيات في هذه المسألة يمكن أن نستخلص جملة من الفوائد أهمها:

١. منهج المرسلين يقوم على اتباع الحوار ومخاطبة الناس بلين القول.

٢. ارتباط مسألة الإيمان بحرية الاختيار.

٣. وجوب تجنب أشكال العنف في مخاطبة المخالفين، وإن كان عنفاً لفظياً، والاقتصار على ذكر الوعيد الإلهي لمن أعرض عن الدعوة.

فهمة الرسل إذن محصورة في البلاغ والنصح والبشارة والندارة والبيان للدين، مع احترام اختيار الناس لدعوتهم أو رفضها.

٥. سبب تشريع الجهاد في الإسلام وعلاقته بالحرية الدينية

يظن الجهلة بالدين الإسلامي، وكذلك من ساء فهمهم لبعض شعائره، أن تشريع الجهاد إنما هو لمقاتلة من يأبى الدخول في الإسلام، فكان ضررهم على الدين كبيراً. وكذلك يروج خصوم هذا الدين هذه الشبهة بغرض الكيد وتغيير الناس من الدين مستغلين أخطاء هؤلاء الجهلة، وهكذا ضاعت بعض مقاصد هذا الواجب بين هذين الصنفين من الناس.

ونقف قليلاً عند هذا الواجب نستجلي حقيقته، وسبب تشريعه، ونعرف هل هو مضاد فعلاً للحريات الدينية؟!

لقد أجمع علماء هذه الأمة من سلفنا الصالح أن الله إنما شرع الجهاد لمقاتلة من تصدى للدعوة، ووقف في طريق وصولها إلى الناس، وقد كان جل ما يطلبه الرسول ﷺ من المشركين أن يخلوا بينه وبين الناس، ولا يتعرضون له ولأصحابه وهم يتحركون بالدعوة.

كما أن منع الكافر المتصدي للدعوة وقتله لو تأملناه من زاوية المصلحة العامة للناس ومجتمعاتهم، نجده حفاظاً على حريات باقي الناس والشعوب جميعهم. والحرية العامة بلا شك أوكد وأولى من حرية الفرد، إذن فكمال الحرية قد يكون بالمنع أحياناً سواء كان هذا المنع بمقاتلة المتصدين للدعوة، الواقفين حائلاً بينها وبين الناس، أو يكون منعاً للشهوات أن تنزل بالإنسان إلى مرتبة الأنعام.

فالجهد في الإسلام إنما شرع أساساً للدفاع عن الدين وعقيدة التوحيد، وحفاظاً على حرية معتنقيه الدينية، وعلى حقوقهم الإنسانية، والسعي لدعوة هذه الدعوة على أكبر مساحة ممكنة على الأرض. وما يدل على صدق هذا الرأي أن الله ﷻ لم يأذن ويشرع الجهاد في مكة على رغم الأذى الذي كان يلحق بالصحابه ﷺ، فلا يظن ظان أن الجهاد ثار للنفس على هذا الأذى، ولكن عندما أصبح للمسلمين كيان ودولة بالمدينة المنورة، أصبح مناطاً في رقابهم المحافظة على هذه الدولة الوليدة الراعية للرسالة الخاتمة، فشرع الجهاد لحماية حرية المسلمين الدينية أينما كانوا في بقاع الأرض، وكذلك لاسترداد الحقوق المالية المغتصبة من مشركي قريش وردها لأصحابها المهاجرين. وكان أول ما نزل في الجهاد قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

ويقول القرطبي في تفسير الآية: ”ولا خلاف أن القتال كان محظوراً قبل الهجرة بقوله: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْيِّهِ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، وقوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، وما كان مثله مما نزل بمكة“ (٤٧).

نزل بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠]، فالمبادرة بقتال المسلم المأمون جانبه، اعتداء بلا شك. يقول ابن عاشور في تفسيره للآية الأخيرة: ”ولا تعتدوا« أي: لا تبدئوا بالقتال. وقوله «إن الله لا يحب المعتدين» تحذير من الاعتداء، وذلك مسالمة للعدو واستبقاء لهم، وإمهال حتى يجيئوا مؤمنين“ (٤٨). فالله سبحانه أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين.

إن الجهاد في الإسلام له شروطه وضوابطه وآدابه، وهذا أيضاً تتجلى فيه كفالة هذا الدين لحريات الناس، فالأصل أن المسلم حين يجاهد يفرق بين المقاتل القادر على حمل السلاح، والضعيف العاجز عن ذلك، وقد نهت الشريعة عن قتل النساء والصبيان والعبيد والعجائز، أو التعرض لمن اعتزل في صومعته من رجال الدين، كما نهت الشريعة كذلك عن قطع الأشجار والزروع في الحرب لأن الإسلام حياة وصلاح لا موت وخراب. فالقتل محصور فيمن حمل السلاح وقاتل المسلمين أو ظاهر على قتلهم كما فعلت يهود المدينة.

فالجهاد في الإسلام إذن ليس اعتداء من الإسلام على باقي الأديان، بل هو دفع للشرب وضرب على يد من يحارب الدعوة ويقف حائلاً بينها وبين الناس، ويسعى لإطفاء نور الله على الأرض. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صُومُعُ وَيَبُوعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٤٢﴾﴾ [الحج: ٤٠-٤١]. وقد ذكر علال الفاسي في مقاصده حالات ثلاثاً تمنع الحرب في شريعتنا الإسلامية:

الحال الأولى: فيما إذا استنفدت أغراضها ولم يبق لها موجب، بمعنى أن الخطر وقع دفعه والاطمئنان على العقيدة أصبح أمراً لا شك فيه، فإنه لا يبقى للمسلمين حق في أن

يواصلوا القتال للتوسع أو للانتقام أو لمجرد الاستعلاء والانتشاء بتوالي النصر، وذلك ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا إِيكَمُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُقْسِدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وهذا ما يعبر عنه الفقهاء بأن الجهاد ضرورة تقدر بقدرها، فهي بمثابة أكل الميتة الذي يباح لمن اضطر إليه لا يجوز له أن يتجاوز به قدر الشيع والاطمئنان على النفس من الموت.

والحال الثانية: فيما إذا أظهر المحاربون لنا رغبة في السلم وعلمنا أنهم مخلصون في طلبهم ذلك، وليس هو منهم مجرد خدعة حربية، فإنه يجب علينا أن نستجيب لهم ونمسك عن القتال لأنه لا يكون له مبرر شرعي وذلك قوله تعالى: ﴿وَأِنْ جَاءَكُمْ السَّلَامُ فَأَجْزَعْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

وأما الحال الثالثة: فهي ما إذا قامت في العالم دعوة لتحريم الحرب جملة واتفقت الدول كلها بمقتضى أوافق عامة مضمونة النفاذ، فإنه يجب علينا أن نكون في مقدمة المستجيبين لهذه الدعوة ويحرم علينا شرعاً الدخول في حرب كيفما كان نوعها بشرط أن تكون هذه السلطة الدولية قادرة على حماية الطوائف والأديان والجماعات بنفوذها من كل اضطهاد وإكراه^(٤٩).

ويحدد الإسلام وجه العلاقة وحدودها مع غير المسلمين، حيث يظهر لنا كذلك احترام هذا الدين لحرية المخالفين له. قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [٨] إِنَّمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [٩] [المتحنة: ٨-٩]. يقول البغوي في تفسيره للآية: "أي: لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم، «وتقسطوا إليهم» تعدلوا فيهم بالإحسان والبر، «إن الله يحب المقسطين» قال ابن عباس: نزلت في خزاعة كانوا قد صالحوا النبي ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه

أحداً فرخص الله في برهم“ (٥٠). فالآية إذن أصل في بر كل من لم يحارب ولم يعن على محاربة الإسلام والمسلمين.

وقد طالب الشارع الحكيم بتأمين حياة هؤلاء المشركين المخالفين للحق المسلمين، حين يصلهم الحق. فما عسى يقول بعد هذا المرجفون والمتربصون بهذا الدين، خصوصاً من ينصب نفسه متحدثاً باسم الرب وباسم الأديان الأخرى. قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقِ اللَّهَ مَا آمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

٦. إقرار الإسلام الحرية الدينية لأهل الكتاب وموقفه منهم

لقد سبق معنا أن الإسلام واضح وصريح من عدم إكراه كل من اعتقد ديناً آخر غيره، أو الضغط عليهم - دون اعتبار للوسيلة - لترك معتقداتهم واعتناق الإسلام. ولكن هل معنى هذا أن يعترف الإسلام وأهله بباقي الأديان الإلهية الأخرى - اليهودية والنصرانية - بعد نسخ رسالاتها بالرسالة المحمدية الخاتمة؟! وهل يمكن اعتبار هذه الأديان بعد تحريفها على حق فنقرهم عليها من باب الإيثار بالحرية الدينية؟!

إن التمتع بحرية الاختيار والإرادة في اعتناق أي دين هو مكسب فطري أقرته كل الشرائع وعلى رأسها الشريعة الإسلامية الخاتمة، ولكن هذا لا يعني كما مر معنا أن يقر الإنسان على اختياره إن كان مجانباً للدين الحق والعقيدة الإسلامية الصحيحة. فبعد بعثة محمد ﷺ لا وجود في التصور الإسلامي، ولا في اعتقاد المسلم إلا الإسلام، وهذا ما ينص عليه القرآن نصاً صريحاً لا تأويل فيه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فكل إنسان ملزم بالحق بعد معرفته، خصوصاً أهل الكتاب لمعرفةهم به. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا

مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران: ٧٠-٧١]. يقول سيد قطب رحمه الله: "والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام كما يدعو الملحدون والوثنيين سواء، وهو غير مأذون في أن يكره أحداً من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام، لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه. فالإكراه في الدين فوق أنه منهى عنه هو كذلك لا ثمر له، ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب بعد بعثة محمد ﷺ يقبله الله" (٥١).

إن لأهل الكتاب خصوصية في الشريعة الإسلامية، ومظاهر احترام حريتهم الدينية كثيرة أهمها أن الإسلام يسمح بتعايش مختلف الأديان داخل دياره مع ضمان الحرية لأصحاب هذه الأديان في المحافظة على معتقداتهم، وممارسة شعائرهم التعبدية، وحرية تصرفاتهم المدنية، وكل ذلك تحت قاعدة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا». ولم يشهد أهل الكتاب - يهود ونصارى - أفضل مناخات حريتهم الدينية إلا في ظل عيشهم داخل المجتمع الإسلامي. فكلا الفريقين قد شهد مذابح فظيعة في تاريخهم وقد كانت هذه المذابح ترتكب تارة بيد أحدهما على الآخر كما فعل اليهود مع النصارى زمن المسيح عيسى بن مريم ﷺ وما بعده من أزمان، وكذلك محاولات الإبادة التي تعرض لها اليهود على يد الآشوريين والرومانيين (٥٢).

وفي مقابل ذلك نجد أن النبي محمد ﷺ منذ بداية وضع أولى اللبانات في صرح الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة يقر في دستورها بالحرية الدينية لليهود المدينة، ويعترف لهم بأنهم يشكلون مع المسلمين أمة واحدة. وكذلك حين فتحت القدس في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضمن للمسيحيين من سكان القدس الأمان على حياتهم وكنائسهم. يقول محمد الخضر حسين: "وإبقاء المحكومين على شرائعهم وعوائدهم،

منظر من مناظر السياسة العالية، وباب من أبواب العدالة يدخلون من قبله إلى أكناف الحرية^(٥٣).

إن الإسلام لم يكتف بالاعتراف بحرية الأديان الأخرى ومعايشتها والتسامح معها، بل إنه جعل من موجبات الإيمان الإقرار والإيمان بنبوة ورسالية سائر الأنبياء والرسل، وبرسالاتهم. قال تعالى في حق الإنجيل ورسالة عيسى عليه السلام: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]. وقال تعالى في التوراة المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]. وكذلك الإيمان بأن مصدر الرسالات جميعاً واحد هو الله ﷻ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ونلاحظ كذلك قيمة الحرية الدينية لأهل الكتاب من خلال إيمان الإسلام بمحااورتهم، وقد ورد في القرآن كثير من الآيات التي حاورت أهل الكتاب وناقشتهم في معتقداتهم ومواقفهم المنحرفة الضالة. فالحوار الديني من أسسه حرية التعبير، فالمحاوور لا قيد عليه في إبداء رأيه الديني في المسائل المطروحة في الحوار. ولكن في مقابل ذلك نجد أن أصحاب الملل الأخرى استغلوا هذا التسامح الإسلامي، وهذه الحرية الدينية المكفولة لهم، وباسم حوار الأديان؛ يكيدون للإسلام مثلما حدث في الأندلس حيث صنف المنصرون الحاقدون على الإسلام مؤلفات كثيرة جادلوا فيها الإسلام وأهله^(٥٤)، وقد تصدى لهم في ذلك علماء الأندلس رداً وتفنيداً مثل ابن حزم والقرطبي والباجي وغيرهم.

والتأمل اليوم في ما أطلق عليه أصحابه «النظام العالمي الجديد» يجد الحرية الدينية متاحة للجميع عدا المسلمين فحريتهم الدينية مصادرة أين ما كانوا - برغم كفالة الإسلام لحرية الجميع - ويراد فسخ دينهم من خلال محاولات استحداث دين جديد للعالم مشكل من جملة الاعتقادات الموجودة تحت شعار «وحدة الأديان»، ويضاف إلى ذلك الحملة التنصيرية الشرسة على العالم الإسلامي خاصة في أطرافه المختلفة سواء بإفريقيا أو آسيا، والاعتداء على مقدساته واستخدام الإكراه في التنصير باستغلال حاجة الناس للصحة والتعليم خاصة.

الخاتمة

- إن البحث يمثل جملة من الإشارات المستوحاة من هدى الدين الإسلامي فيما يتعلق بموقفه من مسألة الحرية الدينية وأهم ما يمكن استخلاصه من هذا البحث الآتي:
١. ما كان الإنسان ليدرك حريته وكرامته على الوجه الذي أراده له الإسلام، لولا نزول الوحي وإرشاده لمثل هذه القيم.
 ٢. أول خطوة في حرية الإنسان تبدأ من خلال إحساسه أنه مكلف ومسؤول عن أفعاله.
 ٣. الإنسان الحر هو من تغلبت فطرته الإنسانية الإيمانية على جزئه الحيواني الشهواني.
 ٤. الإسلام ينادي بالتححرر من أشكال العبودية للطاغوت، ولا يعتبر الإنسان حراً بالمعنى الكامل إلا إذا آمن بالله وبدينه.
 ٥. لا يعني كفالة الإسلام لحرية الإنسان في اختيار معتقده أن يقره عليه إن كان قد اختار عقيدة كفرية.

٦. الجهاد ليس فرضاً للدين بقوة السلاح، وإنما هو دفاع عن بيضة الإسلام، وردع لمن حال بين الناس والدعوة وشكل خطورة على الدين، وصادر حرية الناس في اعتقاد الإسلام ديناً.
٧. من مظاهر تكريم الرسالة الإسلامية للإنسان أن جعلته حراً في اختياره وإرادته، وإن كان الأمر متعلقاً بالمرجعية الدينية والعقدية في حياته.
٨. حفظ الإسلام الحريات الشخصية العامة للإنسان من خلال تحريم الاعتداء على دمه، وماله، وعرضه، وتتبع عوراته بالتجسس عليه مثلاً.
٩. ضمان الإسلام لحرية أهل الذمة الدينية من حيث:
 ١. حرية المعتقد.
 ٢. حرية التحاكم لشرائعهم فيما بينهم.
 ٣. حرية ممارسة شعائرهم التعبدية، واحترام معابدهم.
١٠. منهج الرسل جميعاً يقوم على الآتي:
 ١. الاقتصار في الدعوة على البلاغ والنصح والبشارة والندارة، والحوار ومخاطبة الناس بلين القول، مع احترام حرية الاختيار للدعوة.
 ٢. ارتباط مسألة الإيمان بحرية الاختيار.
 ٣. تجنب أشكال العنف في مخاطبة المخالفين، وإن كان عنفاً لفظياً، والاقتصار على ذكر الوعيد الإلهي لمن أعرض عن الدعوة: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
١١. احترام الإسلام لحرية أهل الكتاب الدينية، والتأسي في ذلك بسيرة الرسول محمد ﷺ والصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

١٢. كفالة الإسلام حرية المناقشات والحوار الديني، وحرية التعبير عن الرأي في العقائد دون تجاوز حدود الحوار الملتزم بالأخلاق الفاضلة والآداب.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. إبراهيم البيجوري، شرح جوهرة التوحيد، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، (بدون ط)، ١٩٩٤م.
٣. البخاري (محمد بن إسماعيل)، الجامع الصحيح.
٤. البغدادي، أصول الدين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
٥. البغوي (الحسين بن مسعود)، معالم التنزيل، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ٣، ١٩٩٥م.
٦. البيضاوي (أبو عمر بن محمد الشيرازي)، دار الفكر، بيروت، (بدون ط)، ١٩٩٦م.
٧. ابن تيمية، الفتاوى، (بدون أي تعريف للكتاب).
٨. الجرجاني (علي بن محمد)، التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق.
٩. الغزالي (أبو حامد): المستصفى.
١٠. ابن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون ط و ت).
١١. الرازي (محمد بن أبي بكر): مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، (بدون ط).
١٢. السرخسي (أبو بكر محمد بن أحمد): أصول السرخسي، تحقيق أبو الوفا الأفغاني، دار المعرفة، بيروت، (بدون ط و ت).
١٣. سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط ٢٧، ١٩٩٨م.
١٤. الطبري (محمد بن جرير)، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.

١٥. الطبري (محمد بن جرير)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٣، (بدون ت).
١٦. عبد المجيد النجار، دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ط١، ١٩٩٢م.
١٧. علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٥، ١٩٩٣م.
١٨. القرافي (أحمد بن إدريس)، الفروق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
١٩. القرطبي (محمد بن أحمد)، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، (بدون ط و ت).
٢٠. القيم الإسلامية، المكتبة الإلكترونية الشاملة.
٢١. كامل سعفران، اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام للنشر، القاهرة، (بدون ط)، ١٩٨٨م.
٢٢. محمد باقر الصدر، بحوث إسلامية، دار الكتاب الإسلامي، إيران، ط١، ٢٠٠٤م.
٢٣. محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، المطبعة التعاونية، القاهرة، (بدون ط).
٢٤. محمد سليم العوا، حقوق الإنسان في الإسلام، نشر العلاقات الدولية بمنظمة الإعلام الإسلامي، طهران، ١٩٨٨م.
٢٥. محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (بدون ط و ت).
٢٦. محمد عبده، رسالة التوحيد، دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون ط و ت).

٢٧. محمد عبد الجبار، الديمقراطية بين العلمانية والإسلام، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٩ م.
٢٨. محمد الغزالي، عقيدة المسلم، المكتبة الفيصلية، (بدون ط و ت).
٢٩. محمد قطب، كيف ندعو الناس، المكتبة الإلكترونية الشاملة.
٣٠. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط ٢٧، ١٩٨٤ م.
٣١. ابن منظور، لسان العرب، دار الرشاد الحديثة، بيروت، (بدون ط و ت).
٣٢. النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، طبعة القاهرة، ١٣٤٤ هـ.
٣٣. النووي (عبي الدين بن زكريا)، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١، ١٩٨٧ م.

- (١) انظر ابن منظور، لسان العرب، دار الرشد الحديثة، بيروت، (بدون ط و ت)، ١٧٧/٤، والرازي (محمد بن أبي بكر)، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، (بدون ط)، ١٩٩٦م، ص ١١٤، والمنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط ٢٧، ١٩٨٤م، ص ١٢٤.
- (٢) علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٥، ١٩٩٣م، ص ٢٥١.
- (٣) علال الفاسي، المرجع السابق، ص ٢٤٨.
- (٤) القيم الإسلامية، المكتبة الإلكترونية الشاملة، ص ٢١.
- (٥) الجرحاني (علي بن محمد)، التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، (بدون ط و ت)، ص ٥٢.
- (٦) القرافي (أحمد بن إدريس)، الفروق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م، ٣٥٣/١.
- (٧) الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد)، المستصفى، ٤٩٩/١.
- (٨) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، طبعة القاهرة، ١٣٤٤هـ، ١٨٩/١.
- (٩) السرخسي (أبو بكر محمد بن أحمد)، أصول السرخسي، تحقيق أبو الوفا الأفغاني، دار المعرفة، بيروت، (بدون ط و ت)، ٢٨/٢.
- (١٠) السرخسي، المصدر السابق، ٣٣٤/٢.
- (١١) محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، المطبعة التعاونية، القاهرة، (بدون ط)، ١٩٧٤م، ص ٤٥.
- (١٢) ابن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون ط و ت)، ٦٤٠/٥.
- (١٣) انظر محمد عبده، رسالة التوحيد، دار الكتب العلمية، بيروت، (بدون ط و ت)، ص ٢٢-٢٣.
- (١٤) انظر محمد الغزالي، عقيدة المسلم، المكتبة الفيصلية، (بدون ط و ت)، ص ٩٨-٩٩.
- (١٥) إبراهيم البيهقوري، شرح جوهرة التوحيد، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، (بدون ط)، ١٩٩٤م، ص ١٠٦.
- (١٦) القرطبي (محمد بن أحمد)، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، (بدون ط و ت)، ٢٨٥/٥.
- (١٧) علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ص ٢٣٥.

- (١٨) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم (بشرح النووي)، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم، ١٢٠/١٦.
- (١٩) البخاري (محمد بن إسماعيل)، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التدابر والتحاسد، ٢٣/٨.
- (٢٠) البغدادي (عبد القاهر بن طاهر)، أصول الدين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص١١١.
- (٢١) البغدادي، المصدر السابق، ص١١١-١١٢.
- (٢٢) البغدادي، المصدر السابق، ص١١٤.
- (٢٣) محمد قطب، كيف ندعو الناس، المكتبة الإلكترونية الشاملة، ص١٣٤.
- (٢٤) رسالة بولس إلى كنايس غلاطية، ١٣/٥.
- (٢٥) عبد المجيد النجار، دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ط١، ١٩٩٢م، ص٤٥.
- (٢٦) صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام ح (١٢٩٣) وكتاب التفسير باب «لا تبديل لخلق الله» لدين الله خلق الأولين دين الأولين والفطرة الإسلام ح (٤٤٩٧) وكتاب القدر باب الله أعلم بما كانوا عاملين ح (٦٢٢٦)، وصحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ح (٢٦٥٨) و (٢٦٥٨).
- (٢٧) محمد سليم العوا، حقوق الإنسان في الإسلام، نشر العلاقات الدولية بمنظمة الإعلام الإسلامي، طهران، ١٩٨٨م، ص١٠٠.
- (٢٨) محمد عبد الجبار، الديمقراطية بين العلمانية والإسلام، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص١٢٦.
- (٢٩) غلال الفاسي، مقاصد الشريعة ومكارمها، ص٢٤٨.
- (٣٠) غلال الفاسي، المرجع السابق، ص٢٤٨.
- (٣١) محمد باقر الصدر، بحوث إسلامية، دار الكتاب الإسلامي، إيران، ط١، ٢٠٠٤م، ص٤٧.
- (٣٢) الطبري (محمد بن جرير)، تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ٣٤٤/٤.
- (٣٣) عبد المجيد النجار، دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، ص٤٦.
- (٣٤) ابن تيمية، الفتاوى، ١٨٦/١٠، (بدون أي تعريف للكتاب).
- (٣٥) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، (بدون ط و ت)،

٦٦/٩

- (٣٦) القرطبي (محمد بن أحمد)، الجامع لأحكام القرآن، ٢٨٠/٣-٢٨١، والطبري (محمد بن جرير)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٣، (بدون ت)، ١٥/٣.
- (٣٧) القرطبي، المصدر السابق، ٢٨٠/٣.
- (٣٨) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط٢٧، ١٩٩٨م، ١/٢٩١.
- (٣٩) انظر سيد قطب، المرجع السابق، ١/٢٩١.
- (٤٠) البغوي (الحسين بن مسعود)، معالم التنزيل، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٣، ١٩٩٥م، ١/٣١٤.
- (٤١) البيضاوي (أبو عمر بن محمد الشيرازي)، تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت، (بدون ط)، ١٩٩٦م، ١/٥٥٧.
- (٤٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٥/٣٨١.
- (٤٣) السعدي، تيسر الكريم الرحمن، تحقيق محمد زهري النجار، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء، الرياض، ١٤٠٤هـ، ١/٣١٦.
- (٤٤) البغوي، معالم التنزيل، ٥/١٦٧.
- (٤٥) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم، ١٢٠/١٦.
- (٤٦) الطبري (محمد بن جرير)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٨/٣.
- (٤٧) القرطبي (محمد بن أحمد)، الجامع لأحكام القرآن، ٢/٣٧٤.
- (٤٨) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢/١٦٩.
- (٤٩) علل الفاسي، مقاصد الشريعة ومكارمها، ص٢٣٣.
- (٥٠) البغوي (الحسين بن مسعود)، معالم التنزيل، ٨/٩٥.
- (٥١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢/٣٩١.
- (٥٢) انظر لهذه الاضطهادات التاريخية ضد اليهود: كامل سفعان، اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام للنشر، القاهرة، (بدون ط)، ١٩٨٨م، ص١٥-٢٦.
- (٥٣) محمد الخضر حسين، محاضرات إسلامية، ص٤٥.
- (٥٤) مثال ذلك كتاب: «تفنيذ القرآن» لريكولدو دي مونت كروس.